JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الحادي والعشرون
٢٠٢٤م /١٤٤٥هـ
العدد الحادي والعشرون
(٢٨٣)- (٢٩٥)

الحضور والغياب في موشّحة جادك الغيث إذا الغيث همى/ للسان الدين بن الخطيب

م.د أحمد تركي حمد
Ahmed.hamaad@tu.edu.iq
جامعة تكريت كلية التربية الأساسية/ الشرقاط/ قسم اللغة العربية

المستخلص:

يثير هذا البحث ظاهرة تجذّر الحضور والغياب في (موشّحة جادك الغيث إذا الغيث همى للسان الدين بن الخطيب), وعلى الرغم من وجود هذه الظاهرة في تراثنا الأندلسي, إلّا إنَّها كانت متجذّرة في شعر الغربة والحنين إلى الوطن, ومما لاشك فيه أنَّ العامل السياسي كان له الأثر الأكبر في استفحالها, لا سيما في سنوات الضعف التي كانت تمرّ على شبه الجزيرة الأيبيرية بشكل يكاد أنْ يكون دوريا, فالإنسان الأندلسي كان على ترحال قسري دائم, لأسباب يعرفها أو قد لا يعرفها, فما أنْ فتح عينه على بلاد ما, وتعلق فؤاده بها لا يلبث أنْ يفارقها، موزعا فجائعه على تفاصيلها, فتارة يستحضر الحبيبة، ويغيب عنه الأصحاب، وتارة أخرى يستحضر أطيارها وأثمارها وأمطارها, وقد يستذكر نجمة لمعت في سمائها، وقد يتعامل معها على أنَّها إنسان واحد يغيب عنه في لحظة انفصام مؤقت سرعان ما يعاود الحضور كما حدث مع شاعرنا الذي كان شاهدا على تلك الأحداث حاكما ومحكوما عليه.

مجلة العلوم الاساسية
للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الاساسية

الكلمات المفتاحية: الحضور, والغياب, لسان الدين بن الخطيب .

Presence and absence in the poem of (Jadak Al-Ghaith Etha Al-Ghaith Hama) / by Lisan Al-Din Ibn Al-Khatib

Dr. Ahmed Turki Hamad
Ahmed.hamaad@tu.edu.iq
Tikrit University College of Basic Education / Sharqat

Abstract:

This research raises the phenomenon of rooted presence and absence in the poem of (Jadak Al-Ghaith Etha Al-Ghaith Hama) for the the poet Lisan Al-Din Ibn al-Khatib, and despite the quality of this phenomenon in our

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الحادي والعشرون
٢٠٢٤م /١٤٤٥هـ

Andalusian heritage, but it was rooted in the poetry of alienation and homesickness, and there is no doubt that the political factor had the largest role in its exacerbation, especially in the years of weakness that were passing on the Iberian Peninsula almost periodically, The Andalusian man was on a permanent forced travel, for reasons he knows and may not know, as soon as he opened his eye on a country, and attached to his heart by it soon to leave it, distributing his sorrows on its details, once evokes the beloved, and absent from him companions, and again evokes its birds and fruits and rain . He may recall a star that shone in its sky, and he may treat it as a human being who is absent from him in a moment of temporary schizophrenia that soon returns to attendance, as happened with the poet, who was a witness to these events.

Keywords: presence, absence, Lisan al-Din ibn al-Khatib.

ومن هنا تستثمر هذه الدراسة جزئية الحضور والغياب في قصيدة **(جادك الغيث إذا الغيث همى)**, فالهدف منها هو تحليل القصيدة برؤى تناقش **(الحضور والغياب)** بصفته موضوعا لم يلتفت إليه الباحثون السابقون بعمق يُظهر صراع الحضور المتخيل, والغياب الحقيقي, ورصد العذابات التي تترتب إزاء ذلك, كما أننا نسعى للإجابة عن بعض الأسئلة لعلَّ من أهمها:

- محاولة تفسير الأسباب التي جعلت ابن الخطيب يضخّ هذا الكم الهائل من الوجع في القصيدة .
- كيف استطاع ابن الخطيب أنْ يدمج بين الرقة والعذوبة, والسياسية والقيادة, أو أنَّه كيف وجد الوقت كي يوافق بين خشونة السياسة, ورقة الأدب، والإلمام بهذا الكم الهائل من العلوم المختلفة؟
- كيف استطاع ابن الخطيب يكون تقليديا في لغة القصيدة, وموضوعها, وصورها, ومجددا في موسيقاها ؟

نسعى إلى معرفة جميع ذلك بعد التعرّف على شاعرنا عن كثب بهذه الوقفة السريعة .

ابن الخطيب:

في أوائل النصف الأوّل من القرن الثامن الهجري لمع في سماء ما تبقّى بيد المسلمين في الأندلس, رجل فريد من نوعه, أدبا, وتاريخا, وسياسة, وطبّاعاً, وموسيقا(ينظر: ابن الخطيب، قاهر,١٩٧٣, ص٧), ذلك الرجل هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله لسان الدين بن الخطيب السلماني، المعروف بابن الخطيب قرطبي الأصل, ثم طليطليه، ثم لوشيه، ثم غرناطيه(ينظر: الإحاطة, ابن الخطيب ، ج٤, ص٤٢٩). الذي يصفه القدامى والمحدثون على حد سواء, بالسياسي

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الحادي والعشرون
٢٠٢٤م /١٤٤٥هـ

القدير, والمؤرخ البحّاثة, والناثر المجيد, والناظم المكثر, والشاعر الرقيق(ينظر: ابن الخطيب, قاهر ١٩٧٣، ص٧).

ولد ابن الخطيب في (لوشة) في رجب (٧١٣ هـ) وكان جده سعيد أول من استوطنها من أسرة عربية, ذات جذور طيبة في الفضل والعلم, كانت نشأته الأولى في غرناطة, وفيها حلّ الشباب تمائمه, لكن (لوشة) ظلت وترا يترنم به(ينظر: ابن الخطيب, ١٩٧٨ص٢١). وكان أبوه كاتبا في الديوان السلطاني فنشأ في كنف والده وتلقى علومه على عدد من شيوخ العصر وأكابر العلماء, (ينظر: الركابي،١٩٦٩ص٣٦٧) ((نبغ لسان الدين في القرن الثامن الهجري وكان أعجوبة عصره في الجمع بين السياسة والأدب، والشعر والنثر، يوصف بأنَّه أبرع كاتب أخرجته الأندلس في عصورها الأخيرة, لم تقف كتابته على الرسائل بل كتب في التاريخ والطب والموسيقا، برع في الكتابة بفن السجع ولم يلتزمه دائما وكان له مقامات في الرحلات ووصف البلدان شغل منصب كاتب, ثم رئيس كتاب)), (الركابي،١٩٦٩ص٣٦٧) , ولمكانة ابن الخطيب المرموقة أصبح عنوان عصره في فنون الأدب وضروب العلم, يقول الأستاذ عبد الله كنون: من أراد أن يتبيّنَ نهضة الشعر في عصر بني الأحمر, فلينظر أدب لسان الدين بن الخطيب الذي ملأ الدنيا أدبا وشعرا, وفاق ذكره على السابقين واللاحقين من أدباء الأندلس, فما من مجال إلّا وفيه ذيل سحب, وما من موضوع إلا وقد تناوله بذراع رحب, وبقدر ما له في الشعر من الأبيات البينات فإن له في النثر الفني, والكتابة العلمية, والتاريخية, الآثار الخالدات, وبالجملة كان معجزة قطره ومفخرة عصره, (ينظر: منجد١٩٨٨ ص –٢٧٨),ولقوة أشعاره وقر في بعض الأذهان أنَّ تربة الأندلس المسلمة قد عقّت فلم تنتج أدبا أو علما أو فنا, فكأن سطوع ذلك الإشعاع أعشى الأبصار فلم تعد ترى غيره (ينظر: بهجت, ١٩٨٨ ص –٢٧٨).

استوزره سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (٧٣٣هـ) ثم ابنه الغني بالله من بعده، ولكنه شعر بسعي الحاسدين والوشاة به فكتب إلى السلطان عبدالعزيز المريني برغبته في الرحلة إليه فترك الأندلس خلسة إلى جبل طارق, ثم سبتة في تلمسان, فبالغ السلطان عبدالعزيز في إكرامه, وبعد تولي السلطان المستنصر المغرب بمساعدة الغني بالله اشترط عليه تسليمه(ابن الخطيب) فقبض عليه وسجن, فأرسل الغني بن زمرك إلى فاس وعقدوا مجلس شورى, فأفتى بعض الفقهاء بقتله فأعيد إلى السجن، فدسّ له رئيس مجلس الشورى اسمه (سلمان بن داؤد) بعض الأوغاد من حاشيته فطرقوا باب السجن ليلاً وخنقوه ودفن في مقبرة (باب المحروق) بفاس.(ينظر: السلاوي : ج٤ , ص

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الحادي والعشرون
٢٠٢٤م/ ١٤٤٥هـ

٦٣-٦٤), وكان ابن الخطيب متوقعا لمصيره المحزن وهو بحبسه فرثى نفسه بهذه المقطوعة التي تقطر حزنا ولوعة: (ينظر: ابن الخطيب, قاهر, ١٩٧٣, ص ٨٥-٨٦).

بعُدْنا وإنْ جاوَرَتْنا البُيوتْ وجِئْنا بوَعْظٍ ونَحْنُ صُموتْ
وأنْفاسُنا سَكَتَتْ دَفْعَةً كَجَهْرِ الصّلاةِ تَلاهُ القُنوتْ
وكُنّا عِظاماً فصِرْنا عِظاماً وكُنّا نَقوتُ فَها نحْنُ قوتْ
فقُلْ للعِدا ذَهَبَ ابْنُ الخَطيبِ وفاتَ ومَنْ ذا الذي لا يَفوتْ
فمَنْ كانَ يَفرَحُ منْكُمْ لهُ فقُلْ يَفْرَحُ اليومَ منْ لا يَموتْ

وهكذا انتهت حياة ابن الخطيب على هذه الصورة المحزنة الأليمة بعد عمر قضاه في سبيل العلم والأدب, ذهب ابن الخطيب ولكن أعماله لم تذهب, ولا يزال التاريخ يذكره بكل إجلال وإكبار, وستظل مؤلفاته الكثيرة المتنوعة تنبئ عن فكره الوقاد, وعلمه الغزير.(ينظر: ابن الخطيب, قاهر ١٩٧٣, ص٨٦-٨٧) .

إذ قاربت مؤلفاته الستين مؤلفا, وفضلا عن غزارتها, فإنّها متنوعة الفنون متعددة الأغراض ما بين أدب, وتاريخ, وسياسة, وطبّ, وتصوّف, وأصول, لعلَّ من أهمها: الإحاطة بتاريخ غرناطة, اللمحة البدرية في الدولة النصرية, ورطة التعريف بالحب الشريف, وله في الطبّ: أرجوزة في الطب, خير في الأغذية, الوصول لحفظ الصحة من الفضول. (ينظر: ابن الخطيب,٢٠٠٣, ج١, ص١٣).

و(الأرق) ما جعل ابن الخطيب يكون بهذه الغزارة في التأليف! نعم ذلك المرض الذي كان يعاني منه طوال حياته, فلم يكن ينام من الليل إلاّ أقله, الأمر الذي جعله يجد مساحة واسعة من الوقت, يكتب, ويتأمل, ويدير شؤون الدولة, ويغازل, ويمدح .

التعريف بالحضور والغياب:

الحضور: نقيض المَغيبِ والغَيبَة، وحضَرَ يَحضُرُ حُضُوراً وحِضَارة ... وفلان حسنُ المَحْضَرِ إذا كان ممن يذكر الغائب بخير, (ينظر: ابن منظور: مج٢، ج١٠، مادة "حضر"٩٠٦).

ومن الواضح أنَّ مجيء الحضور مرتبط بالغياب وهنا ثنائية ضدية تقوم على التناقض والتنافر لكن هذا التنافر يربطه سلك خفي يجعل وجود الأول مرتهناً بغياب الثاني، والعكس صحيح.

إذ لا وجود للحضور بمعزل عن الغياب، فغيم الغياب قد جاء بمطر الحضور، فالبصمات والآثار والرسوم دالة على الحضور, والأرض الموحلة ترتسم عليها حدوة الحصان، وبقايا الأواني الفخارية أو الأسلحة أو الأدوات التي يعثر عليها عالم الآثار تساعده على تحديد كيفية تعاقب الجماعات

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الحادي والعشرون
٢٠٢٤م/ ١٤٤٥هـ

الإنسانية على المكان الذي يمارس فيها حفرياته(ينظر: إبراهيم وآخران، ١٩٩٦، ص٤٥– ٤٦ .), والحضور والغياب في موشّحة ابن الخطيب مقسّم على عدة محاور, أولّها: حضور المكان والزمان وغيابهما, وثانيهما: حضور الأصدقاء وغيابهم, ثم يختم بحضور الحبيبة وغيابها, وهذا ما نسعى إلى عرضه تباعا.

حضور المكان والزمان وغيابهما:

بدأ شاعرنا قصيدته بمقدمة غيابية بحتة , وأيّة غيبة ؟ إنَّها الأندلس التي كانت, تُحضر في ذهنه ذكريات الماضي السعيد لبلاده التي غادرها قسرا, متمسكا بما اغتنمته ذكرياته من سعادة قد غابت عنه بلمح البصر، وما تنعّم به من متعة بين الأحبة وجمال الطبيعة, فتهيج عواطفه بهذه الذكرى, و يعرض علينا صورة لها، جعلنا نشاركه سروره بها وألمه لذهاب عهدها، ولسان الدين بن الخطيب في هذه الموشّحة يحدثنا عن أيام جميلة سعيدة غابت عنه في غرناطة, يقول: (ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٢).

جادَكَ الغَيْثُ إذا الغَيْثُ هَمى يا زَمانَ الوصْلِ بالأندَلُسِ

إذن لقد غابت الأندلس عن الشاعر فعلا , غير أنه لا يريد أن يصدق هذه الحقيقة, فلا يجد بدا من الدعاء لوصل ذلك المكان بالسقيا, والشاعر في هذا المعنى يحذو حذو المشارقة, إذ كانوا يعبرون عن تعلقهم بالمكان وحبهم له بالسقيا , ولا بد من أنَّ الشاعر قد عرف أهمية المطر عند مغادرته إلى المغرب التي تفتقر أحيانا لوفرة المطر, و إلّا ما حاجة غرناطة للمطر والماء من فوقها ومن تحتها؟ أو ربما استعمل الغيث كرمز للخير من باب العموم ودوام النعمة.

وبعد غياب **المكان** ينتقل الشاعر إلى غياب **الزمان**, ويصفه بالغياب التام إلّا من لحظات قليلة تأتي خلسة في الحلم عندما يغفو, ثم يشّخص الدهر ويجعل منه إنسانا يحقق أمنياته بموعد محدد ويشبه ذلك بموعد الحج الذي له مواعيده المحددة, وهنا يتحدث عن أيام الحضور الخوالي في الأندلس, ففي السابق كان الدهر يسوق له الأمنيات **(فُرادَى, وثُنَى)** واليوم باتت رؤية ذلك المكان تأتي خلسة عند غفوة الشاعر فقط, يقول:(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٢).

لمْ يكُنْ وصْلُكَ إلاّ حُلُما في الكَرَى أو خِلسَةَ المُخْتَلِسِ
إذْ يقودُ الدّهْرُ أشْتاتَ المُنَى تنْقُلُ الخَطْوَ علَى ما يُرْسَمُ
زُفَراً بيْنَ فُرادَى وثُنَى مثْلَما يدْعو الوفودَ الموْسِمُ

ثم يسترسل الشاعر في وصف طبيعة الأندلس الأخّاذة، لينتقل بعد ذلك إلى غياب الأحبة الحقيقي,

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الحادي والعشرون
٢٠٢٤م/١٤٤٥هـ

والجميل في هذه القصيدة، هو التسلسل المتقن في سرد الأحداث؛ إذ لاحظنا أنه قد بدأ بحضور المكان وغيابه بشكل عام- الأندلس- ثم انتقل بعد ذلك إلى حضور الزمان وغيابه, وها هو الآن يصف حضور الأحبّة الروحيّ, وغيابهم الحقيقيّ, يقول :(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٢).

في لَيالٍ كتَمَتْ سرَّ الهَوى بالدُّجَى لوْلا شُموسُ الغُرَرِ
مالَ نجْمُ الكأسِ فيها وهَوى مُسْتَقيمَ السّيْرِ سعْدَ الأثَرِ

فالتعبير عن الألم بذكر نقيضه يؤثر في المتلقي تأثيرا مباشرا، والشاعر هنا قد اتقن ذلك, إذ قارن بين حضور الأحبة وغيابهم؛ ليجعلنا نتماهى مع حزنه كليّا، فقد صوّر لنا حضورهم, وغيابهم كمن يقارن بين الجنة والنار! وإلّا ما هذا المكان الذي حتى لياليه تحبّ الشاعر وصحبه وتكتم أسرارهم؟ فكل شيء هناك مختلف: الليالي تكتم السر, والأصحاب لشدة جمالهم وبياضهم فضحوا ظلمة الدجى, والكؤوس تدور لامعة سعيدة تشاركهم سعادتهم, كل ذلك كان حاضرا في الأندلس, وغاب في غيرها.

ثم تبدأ هذه السعادة بالأفول, فيصفها لنا وكأننا نراها, يقول:(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٢).

وطَرٌ ما فيهِ منْ عيْبٍ سَوَى أنّهُ مرّ كلَمْحِ البصَرِ

فالوطر جميل لكنه مر سريعا, في ذلك تضمين للمدح بما يشبه الذم وهو مستخدم عند شعرائنا لا سيما المشارقة، قال النابغة: (الذبياني, ص ٤٤).

وَلا عَيبَ فيهِم غَيرَ أَنَّ سُيوفَهُم بِهِنَّ فُلولٌ مِن قِراعِ الكَتائِبِ

ومن الملاحظ أنَّ ابن الخطيب قد وفّقَ بين جزالة القصيدة العربية التقليدية, ورقة وعذوبة الموشّحة الأندلسية؛ فجاءت الموشحة على بحر الرمل, خلافا لأغلب الموشّحات التي خرجت عن البحور الخليلية, ليكون مجددا, ومقلدا في آن, وذلك ليس بغريب على شاعر عبقري بحجم ابن الخطيب.

ولنعد لأجواء القصيدة ونشاهد كيف كانت اللحظات الجميلة تهرب من ابن الخطيب بلمح البصر, ولكنها بقيت عالقة بمخيلته يستعرضها لنا بهذا التفصيل الماتع, يقول:(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٢).

حينَ لذّ الأنْسُ مَع حُلْوِ اللّمَى هجَمَ الصُّبْحُ هُجومَ الحرَسِ
غارَتِ الشُّهْبُ بِنا أو ربّما أثّرَتْ فيها عُيونُ النّرْجِسِ

فهنا حضرت حبيبته الحسناء, حلوة الشفتين جميلة العينين, طيّبة المعشر, مع ثلة من الأصدقاء المقربين, ثم ينقل لنا مغازلة العيون خلسة؛ خجلا من أصحابه, ولكن هذه السعادة لم تكتمل؛ لأنّ

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الحادي والعشرون
٢٠٢٤م /١٤٤٥هـ

الوقت لا يسعها, فما أنْ لذَّ أنسه وطاب الحديث, انقضت هذه الليلة بدخول الصبح بسرعة كهجوم الحرس, وقد صوّر لنا هذا المشهد – لقاء المحبوبة – وكأنه قد سافر معها فوق السماء, وبعد انتهاء ليلة الأنس هذه سقطوا بسرعة الشّهب بحلول الصبح, ثم يبالغ بوصف جمال عينيها الذي صعقهم وألقى بهم من الأعلى، وكأنّه يروي لنا قصة من العصر الرومانتيكي.

حضور الأصدقاء وغيابهم:

وبعد حضور هذه الذكريات التي سردها لنا, ينتقل إلى مرحلة أخرى وهي مرحلة اليأس والحزن على غياب الأصدقاء, وبدأ ذلك جليّا باستعماله ياء النداء**(يا أُهيل الحي)** وقد استعمل أسلوب التصغير**(أهيل)** لغايتين: الأولى للتحبيب– محبة الغائبين– والثانية، لتخصيص فئة معينة من مجموع سكنة الحي – صغّر أهل الحي ليأخذ المطلوب فقط – فأراد تلك المجموعة التي غابت عنه وتسببت له بنوبة من الحنين كادت أن تودي بحياته, يقول:(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٢).

يا أُهَيْلَ الحيّ منْ وادِي الغضا وبقلْبي مسْكَنٌ أنْتُمْ بهِ
ضاقَ عَنْ وجْدي بكُمْ رحْبُ الفَضا لا أبالِي شرْقهُ منْ غَرْبِهِ

يناجي الشاعر هنا أحبته ويرغب في تجديد اللقاء معهم بعد الغياب ليدعو وينادي على أهل الحي الذي كان يعيش فيه فيقول: يا أهل الحي بالوادي الذي تحول إلى واد ألم وحزن وشجن، أناديكم لأنكم تحملون منزلة خاصة في قلبي، **(وبقلْبي مسْكَنٌ أنْتُمْ بهِ)** فقد شبه القلب بالبيت الذي يسكن فيه الناس وهو تشبيه بليغ.(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٢).

فأعِيدوا عهْدَ أنْسٍ قدْ مضَى تُعْتِقوا عانِيكُمُ منْ كرْبِهِ

يؤكد الشاعر على صعوبة شعوره وشدة ألمه بعد فراق الأرض والوطن فيقول: إنَّ إحساسي قد ضاق في هذا الفضاء الواسع الكبير، فلم أعدْ أعتني به, ولا بأي شيء فيه، "وضاقَ عَنْ وجْدي بكُمْ" كناية عن شدة ضيقه وحزنه الذي يمرّ به الشاعر.

فيتمنى أنْ يعود إلى ذلك الزمن الذي كان يعيش فيه, ويملأه بالحب والمودة فإذا عاد هذا الزمن سيتحرر من قيوده وكربه، وكلمة عانِيكُمُ "استعارة تصريحية" حيث شبه ابن الخطيب نفسه وهو أسير في قيود الغياب والفراق والبعد، بالأسير الذي أسره سيده ولا يمكنه أن يتحرر منه، فحذف المشبه وذكر المشبه به: (ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٢).

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الحادي والعشرون
٢٠٢٤م /١٤٤٥هـ

واتّقوا اللهَ وأحْيُوا مُغْرَما يتَلاشَى نفَساً في نفَسِ

يتبيّن هنا تعلّق الشاعر غير الطبيعي مع الأصدقاء؛ فإنَّ غيابهم جعله" **يتَلاشَى نفَساً في نفَسِ**" فما كان منه إلاّ أنْ يدعوهم في كل ما يصيبه لمشاركتهم العذاب؛ فهو إنسان عاشق ومغرم بالزمان الماضي وهذه الحالة التي أصبح عليها: (ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٢).

حُبِسَ القلْبُ عليْكُمْ كرَما أفَتَرْضَوْنَ عَفاءَ الحُبُسِ

ثم يؤكد هنا على شدة تعلقه بهم وبزمانهم الذي عاشه فيقول: إنَّ قلبي قد احتفظ بحب وعشق عظيم لذلك الزمن, ولا أظن أنّكم ترضون بغير ذلك, وهو أنْ يتحول ذلك الحب إلى بغض ولا مبالاة، وهنا قد تجرد الشاعر عن أناه؛ ليعبر بكل صدق عن الألم الذي لم يعد من الممكن كتمانه؛ فالمكان, والزمان, والأصدقاء, والحبيبة, قد غابوا جميعا, فلمَ التجمّل والتصنّع, وكتم الوجع بعد الضياع ؟

حضور الحبيبة وغيابها:

ثم تبرز شخصية الحبيبة, لينتقل بعد ذلك شاعرنا إلى محور جوهري ألا وهو حضور الحبيبة وغيابها لاجئا إلى الخيال لاستحضار صورة الحبيبة, متخيّلا إياها قمرا أظهر ضوءه غروب الشمس: (ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٣) .

قمَرٌ أطلَعَ منْهُ المَغْرِبُ بِشقوةِ المُغْرَى بهِ وهْوَ سَعيدْ

ثم ينتقل إلى وصف قسوتها, ولا نعلم هنا إنْ كان يرمز من وراء ذلك إلى قسوة أهل الأندلس, أم أنَّه أراد المعنى الحقيقي للمحبوبة, والراجح أنه أرادها هي, أي المحبوبة؛ لأن سياق القصيدة مبنيّ على ترتيب متقن– كما سبق ذكره– إذ إنَّ الشاعر بدأ بغياب المكان وحضوره, ثم بغياب الزمان وحضوره, ومن ثَمّ غياب الأصحاب وحضورهم, وختم هذه الظاهرة بالحبيبة، فلو كان كذلك لتحدث أو رمّز عنه بغياب المكان .

وعلى العموم فقد أصيب شاعرنا بخيبة أمل عنيفة, جعلته يندم على الإحسان الذي تعامل به طوال فترة الحضور؛ إذ لا فرق بين محسن ومذنب في هوى محبوبته القاسية:(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٣) .

قد تساوَى مُحسِنٌ أو مُذْنِبُ في هَواهُ منْ وعْدٍ ووَعيدْ

ثم ينقل بعد ذلك ليصف لنا جمالها الحسي, وكأنه يريد أنْ يسوغ لنا سبب وقوعه بحبها على الرغم من قسوتها:(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٣) .

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الحادي والعشرون
٢٠٢٤م/ ١٤٤٥هـ

ساحِرُ المُقْلَةِ معْسولُ اللّمى جالَ في النّفسِ مَجالَ النّفَسِ

فهي ساحرة العينين, معسولة الشفتين تمكّنت منه بشكل تام لا يمكنه أنْ يستغني عنها إطلاقا؛ إذ إنَّها الهواء الذي يستنشقه, فكيف له أنْ يعيش دون هوائه؟ أو ربما تجري مجال النَّفَس فلا يمكن له أنْ يتخلص منها لطالما أنه يُجري عملية الشهيق والزفير, وهي إشارة منه على أنَّها تعيش معه, والطريقة الوحيدة للتخلّص منها هو انقطاع النَّفَس(الموت), وقد استعمل المحسن البديعي – الجناس التام – بين لفظتي (النَّفْس) و (النَّفَس) لكي يعبرَّ عن التصاقه بها .

ثم يستسلم أكثر عندما يصف جورها ويمثّلها بالصيّاد الذي يسمّي على فريسته قبل إطلاق السهم:(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٣) .

سدَّدَ السّهْمَ وسمّى ورَمى ففؤادي نُهْبَةُ المُفْتَرِسِ

والبيت مشحون بمعان مضمرة؛ إذ إنَّه يريد أنْ يقارن بين صورتين: الأوّلى قساوة منظر الفريسة عندما يجهز عليها الصياد, لكنها بالمقابل حلال بحكمة الله .

والثانية هي أنَّ الذي يجري له من ظلم محبوبته –على الرغم من قسوتها– راضٍ به للأسباب التي أكدها بقوله:(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٣) .

إنْ يكُنْ جارَ وخابَ الأمَلُ وفؤادُ الصّبِّ بالشّوْقِ يَذوبْ
فهْوَ للنّفْسِ حَبيبٌ أوّلُ ليْسَ في الحُبِّ لمَحْبوبٍ ذُنوبْ
أمْرُهُ معْتَمَدٌ ممْتَثِلُ في ضُلوعٍ قدْ بَراها وقُلوبْ

فلا مانع من استباحة الفؤاد وقطع الأنفاس؛ فهي حبيبة أولى للروح، وبذلك يحقّ لها أنْ تفعل بالنفس ما تشاء إذ **(ليْسَ في الحُبِّ لمَحْبوبٍ ذُنوبْ)** فأمرها نافذ: **(تحضر, تغيب, تقسو, تهجر تقتل...)** لا سبيل للضلوع التي برتها, والقلب الذي بالشوق أذابته إلاّ الاستكانة لها والخضوع لظلمها, والشاعر قد قدّم لنا عذاباته التي جعلت قلوبنا تتقطع، ولكنه في الوقت ذاته طلب منّا ألا نتدخل فالمسوغات التي قدمها لنا قد حللت دمه!

ثم يعود ليضعنا بين الجمال والقسوة مرة أخرى, يقول:(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٣) .

حكَمَ اللّحْظُ بِها فاحْتَكَما لمْ يُراقِبْ في ضِعافِ الأنْفُسِ

ما لهذه الألحاظ التي فعلت بشاعرنا كلّ ذلك؟ يا لجمالها و يا لقسوتها؟ ومن الملاحظ أن الشاعر قد أسهب كثيرا في حضور الحبيبة وكأنه قد تناسى غيابها, على خلاف ما تقدم...

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الحادي والعشرون
٢٠٢٤م/ ١٤٤٥هـ

ويعود ليذكر الغياب ولكن هنا يُشير إلى غياب تام, وشبه حقيقي: (ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٣) .

ما لقَلْبي كلّما هبّتْ صَبا عادَهُ عيدٌ منَ الشّوْقِ جَديدْ

بعد كل هذه الأحلام أفاق الشاعر ليكون أكثر منطقية وواقعية فوصف لنا صورة تراجيدية على طريقته المعهودة, خاطب فيها قلبه المعذّب الذي يمرّ بنوبات غيابية متكررة؛ فكلّما أراد أن ينسى؛ هبت ريح الصبا – التي وصفها العرب بأنها تحن إلى صاحب الدار عندما تهبّ– (ينظر: الزبيدي, ١٩٧١,ص ٤٠٩) فعادت الأشواق مرة ثانية حاملة معها سيل من الذكريات الحالمة والتي كلّما حاول التخلص منها عادت من جديد لتكرر معاناة وصفها بأنها قدر قد كُتبَ عليه باللوح! يقول:(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٣) .

كانَ في اللّوْحِ لهُ مكْتَتَبا قوْلُهُ إنّ عَذابي لَشديدْ

وهنا يضمن الشاعر قوله تعالى: ((**فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ**)) [البروج: ٢٢] ليبين أن حزنه قديم قد كُتب في لوح محفوظ لا مجال للبحث عن الفرح, وهذه أقصى درجات اليأس .

ثم يقوم الشاعر بوصف تفاصيل هذا العذاب بقوله:(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٣)

جلَبَ الهمَّ لهُ والوَصَبا فهْوَ للأشْجانِ في جُهْدٍ جَهيدْ
لاعِجٌ في أضْلُعي قدْ أُضْرِما فهْيَ نارٌ في هَشيمِ اليَبَسِ
لمْ يدَعْ في مُهْجَتي إلا ذَما كبَقاءِ الصُّبْحِ بعْدَ الغلَسِ

هنا استعمل الشاعر مجموعة معان: **كالوصب** مثلا، وهو المرض وشدة الوجع،(ينظر: الفاربي, ١٩٨٧, ج١ , ص٢٣٣) ، **ذما**: وهي العلة التي تُقعد عن الخروج من البيت (ينظر: ابن منظور,مادة"ذمم"ج١٢, ٢٢٠), وكذلك **الغلس**: هو ظلمة آخر الليل (ينظر: ابن فارس , ١٩٧٩,ج٤, ص٣٩٠). كلّ هذه الألفاظ تدلّ على الحالة المؤسفة التي مرّ بها الشاعر, فالقدر قد جلب له الوجع والمرض والفتور في البدن، واجتمعت عليه كلها لتكون كالأغصان المتشابكة، وإنَّ هذه الأغصان(**أضلع الشاعر**) قد جاءها لاعج محرق, أجهز على الشاعر بشكل سريع, سرعة نار في هشيم يبس, لم تبق من مهجة الشاعر إلاّ النزر القليل التي لا يمكن للهم أو النار الوصول لها(ذما) لصعوبتها, وهي إشارة من الشاعر على القوة التي يتمتع بها, ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرحلة التسليم:(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٣) .

سلِّمي يا نفْسُ في حُكْمِ القَضا واعْمُري الوقْتَ برُجْعَى ومَتابْ

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الحادي والعشرون
٢٠٢٤م /١٤٤٥هـ

يسلّم الشاعر أخيرا للقضاء الذي كُتب عليه باللّوح – كما ادّعى – لكنه لم يفقد الأمل فأمر نفسه بالصبر أملا بالرجوع والمتاب .

أما البيت التالي فقد جعله مقدمة استعطافية بحتة, يقول:(ابن الخطيب, مفتاح١٩٨٩, ص ٧٩٣) .

دعْكَ منْ ذِكْرى زَمانٍ قد مضى بيْنَ عُتْبَى قدْ تقضّتْ وعِتابْ

وها جاءت هذه الأبيات أقل صدقا من الأبيات التي سبقتها؛ لأنه فيها تقرّب ومحاباة (لابن الحجاج) حاكم غرناطة؛ إذ يحاول من خلالها استعطافه على أمل العودة, والأبيات كثيرة لا يتسع المقام لذكرها, كما أنها بعيدة عن الحضور والغياب الذي نبحث فيه .

الخاتمة:

استطاع ابن الخطيب أن يجعل من ذكرياته الجميلة, عالما آخر يتكئ عليه كلما عصفت به رياح الغربة, إذ جعل من هذا العالم المتخيل ذا معالم واضحة مألوفة عبر تبادل الرؤى والمشاعر, والحالة النفسية المتناقضة بين جمال الحضور المتخيل, وحقيقة الغياب المأساوي , وهو حيال ذلك دائما ما يهرب إلى الحضور كيما يقتله الغياب.

من جماليات القصيدة ترتيبها المتقن, إذ إنَّ الشاعر بدأ بغياب المكان وحضوره, ثم بغياب الزمان وحضوره, ومن ثَمَ غياب الأصحاب وحضورهم، وختم هذه الظاهرة بالحبيبة والتسليم, وهذا التسلسل الهندسي قد لعب دورا مهما في إشراك المتلقي فجائعه .

استحوذ غياب المكان على مساحة واسعة من ذاكرة الشاعر, لتكون موشّحته من أشهر الموشّحات التي قيلت في فقد الأندلس.

تبين أنَّ الشاعر قد مرّ بتجربة حبّ عنيفة هزّته لدرجة أنّه لم يعد يفرق بين حضورها وغيابها, بحيث أنَّه يتغزّل بها, ثم يشكو منها ويذكر قسوتها, ثم يعود لذكر محاسنها مرة أخرى...

كما أنَّ غياب الأحبّة قد لعب دورا مهما في موشّحة ابن الخطيب, وهذا يدل على أنَّ الشاعر كان يمتاز بالطابع الاجتماعي, خلافا لمن رماه بالعزلة والأنفة .

امتازت الموشّحة بالصدق الشعوري في جلّ أبياتها, إلاّ من بعضها التي جاءت في صيغة المدح, وفيها تبيّن تزلّف ابن الخطيب, للحاكم أملا بالعودة.

ثبت المصادر والمراجع:

١. ابن الخطيب, لسان الدين(ط ١ – ١٩٧٣) ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام ، تح: د. محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الحادي والعشرون
٢٠٢٤م /١٤٤٥هـ

٢. ابن الخطيب, لسان الدين(ط ١ – ١٩٨٩), (ديوان) صنعه وحققه وقدم له: د. محمد مفتاح, المجلد الأول, دار الثقافة للنشر والتوزيع, الدار البيضاء.

٣. ابن الخطيب, لسان الدين(ط١ – ١٩٥٥), الإحاطة في أخبار غرناطة, تح: محمد عبد الله عنان, دار المعارف , القاهرة.

٤. ابن الخطيب, لسان الدين, (ط ٢ – ١٩٧٨) اللمحة البدرية في الدولة النصرية, دار الآفاق الجديدة, بيروت.

٥. ابن الخطيب, لسان الدين,(ط ١ – ٢٠٠٣) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجيز ذلك من شجون الكلام, تح: سّيد كسري حسن, دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

٦. ابن فارس , أحمد بن زكريا (د ط – ١٩٧٩)مقاييس اللغة, تح, عبد السلام هارون، دار الفكر.

٧. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (د ط – د ت), لسان العرب, تح: مجموعة محققين ، دار الفكر، بيروت، لبنان .

٨. بهجت, د. منجد مصطفى, (د ط – ١٩٨٨) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة, نشر وطبع وتوزيع, مديرية دار الكتب للطباعة والنشر , الموصل .

٩. الداية، محمد رضوان, (د ط – ٢٠٠٠) في الادب الاندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.

١٠. الذبياني, النابغة (ط ٢ – د ت) تح: محمد أبو الفضل إبراهيم, دار المعارف, القاهرة,.

١١. الركابي, جودة ,(د ط –١٩٦٩) في الأدب الأندلسي, دار المعارف, مصر.

١٢. الزبيدي, محمد مرتضى ,(د ط – ١٩٧١) تاج العروس من جواهر القاموس, تح: مجموعة من المحققين, دار الهداية,.

١٣. السلاوي ، أبي العباس,(د ط –١٩٧١) الاستقصا لأخبار دول المغرب لأقصى, اعتنى به: محمد عثمان، دار الكتب العلمية, بيروت لبنان.

١٤. الفارابي, اسماعيل بن حماد, (ط١ – ١٩٨٧) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية, تح: أحمد عبد الغفور عطار, دار العلم للملايين.

List of References:

15.Al-Ihata, Lisan Al-Din Bin AlKhteeb, ed. by Mohammed Abdullh Adnan, Dar Al-Ma'arif, Cairo, 1st edition, 1955.

16.Al-Adab Al-Andalusi Min Al-Fatih Hatta Suqout Ghirnata, by Dr. Munjid Mustafa Bahjat, published by Dar Al-Kutub for Printing and Publishing , Mosul, without printing, 1988.

17.Al-Istiqsa Li'akhbar Duwal Al-Maghrib Al-Aqsa, Abi Al-Abbas El-Seelwi, taken care by: Mohammed Uthman, Dar Al-Kutub Al-Elmiya, Beirut-Lebanon, without brinting, 1971.

18.A'amal Al-A'a'alam Feeman Bouya' Qabl A-Ihtilam Min Mulouk Al-Islam Wama Yujezu Thalik Min Shujoun Al-Kalam, Lisan Al-Din Ben Al-khateeb , ed. by Sayed Kusri Hasan, Dar Al-Kutub Al-Ilmiya, Beirut-Lebanon, 1st edition, 2003.

19.Taj Al-Arous Min Jawaher Al-Qamous, edited by a groub by editors, Dar Al-Kutub Al-Ilmiya, 1st edition, Beirut-Lebanon, 1971.
20.Al-Sayb Waljuham Walmadhi Walhakam, edited by Dr. Mohammed Al-Shareef Qahir, 1st edietion, the national company for printing and publishing, Algeria, 1973.
21.Deewan Al-Nabugha, editied by Mohammed Abu Al-Fadhl Ibrheem, Dar Al-Ma'arif, Cairo, 2nd edition, without date.
22.Deewan Lisan Al-Arab Bin Al-Khateeb Al-Salmani, edited and presented by: Dr. Mohammed Miftaah, the 1st Vol., Dar Al-Thaqafa for Publishing, Al-Dar Al-Baydha'a, 1st edition, 1989.'
23.Al-Sahah Taj Allugh Wa Sahah Al-Arabiy, Al-Farabi, edited by: Ahmed Abdulghafour Attar, Dar Al-Ilm Lilmalayeen, 4th edition, 1987.
24.Fi Al-Adab Al-Andlusi, Jawda Al-Rikabi, Dar Al-Ma'arif, Egypt, without printing, 1969.
25.Fi Al-Adab l-Andlusi, Dr. Mohammed Rdhwan Al-Daya, Dar Al-Fikr Al-Mu'asir, Beirut-Lebanon, without printing, 2000.
26.Lisan Al-Arab, Mohammed Ben Manzour Al-Afreeqi, edited by Abdullah Ali Al-Kbeer, Mohammed Ahmed Hasbullah, Hashim Mohammed Al-Shazli, Dar Al-Ma'arif, Cairo, without printing, without date.
27.Al-Lamha Al-Badriya Fi Al-Dawla Al-Nsriya, Lisan Al-Deen Ben Al-Khateeb, Dar Al-Afaq Al-Jadeeda, Beirut, 2nd edition, 1978.
28.Maqayees Al-Lugha Ibn Faris, edited by: Abdusalam Haroun, Dar Al-Fikr, without printing, 1979.

مجلة العلوم الاساسية
للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الاساسية

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الحادي والعشرون
٢٠٢٤م /١٤٤٥هـ